جارونيا

تعلو حشرجةُ الاحتكاكِ حين يدفعُ بعنفٍ بابَه الموصدَ ، تدفعه رغبتُه الكامنةُ فيخطو بثباتٍ إلى الشرفةِ التي لا يتعدى اتساعُهَا عرضَ بلاطتين . يقفُ متأمّلاً بعيونِهِ الثاقبةِ الأطفالَ الصِّغارَوهم يَخْطُونَ فرحينَ أسفلَ نافذتِهِ . تلفحهُ نسمةٌ باردةٌ لا يبالي كثيراً بها بينما يقشعرُّ لها جلدُه الجافُّ الذي يلفُّهُ منذ عدةِ سنواتٍ والذي بدا متهدّلاً كثيراً في أماكنَ متفرقةٍ حولَ رقبتِهِ وأسفلَ بطنِهِ وفي فراغاتِ يديه . يقفُ عند حافَّةِ الباب ويلتقطُ (الراديو)الصغيرَ الذي اعتاد أنْ يُمسكَ به أينما ذهبَ يبحثُ عن إذاعة الأغاني ثم يُسْنِدُ (الراديو) عند حافة أحدِ الأركان ويدندن بكلماتِ الأغنية التي عَلَتْ فجأةً . كان سورُ النافذةِ ممتلئاً كلُّه- إلا مساحةً تكفي لوقفتِهِ – «بإصيصات الجارونيا» تلك النبتةُ التي يعشقُهَا حدَّ الهَوَسِ فاشترى منها الكثيرَ، أنفق على سمادِها ، راح يرعاها ويُعطيها من فراغِ وقتِهِ ويُزَيّنُ بها نافذتَهُ . كان يرتّبُ الألوانَ الأبيضَ – الزَّهْرِيَّ– (الأورجواني) القاتم للغايةِ بترتيبٍ تصاعديٍّ متدرجٍ . راحتْ النافذةُ تُلْفِتُ نظرَ المارّينَ، الذاهبين والعائدين حتى المسرعين وهم يقودون عرباتِهم لا يحرمونَ أنفسَهُم من اختلاس بضعِ نظراتٍ صوبَهَا فتنبعثُ من أرواحهم الطمأنينة والأمل في يومٍ مشرقٍ وحالمٍ. إلاّ «مروان» كان يركضُ مسرعاً لا يلتفتُ أبداً إلى تلك الورود المتداخلة ولا يعيرها أدنى التفاتةٍ رغم أنَّها دوماً ما كانتْ تناديه..!!

كان لا يستجيب لهسهساتها التي تأتيه على مَهَلٍ فيحسُّ بأنَّ هناك من يتعقبُهُ فيسرع الخطوَ دونَ التفاتةٍ لأحدٍ كما أوصتْهُ أمُّهُ فقد انتهى لتوّهِ من «كي جي» وأصبح الآن في الصف الأول الابتدائي وعليه أن يلتفتَ كثيراً لدروسه . راح يقفُ كلَّ صباحٍ في نافذته ينادي على (مروان) بكل الأسماء التي تخطر بباله محاولاً أن يحظى بنظرةٍ منه وعندما أعيتْهُ الحيلةُ انتظر متحفزاً وقبل أن يعبرَ (مروان) مسرعاً أسقطَ متعمّداً (الراديو) فسقط أمام قدم الصغير مباشرة فجفلَ الصغيرُ وتوقفَ ملتفتاً يمينا ويسارا حتى سمع نفس الهسهسة تأتيه من أعلى وحين نظر لأعلى وجد جنةَ الورودِ الماثلةِ وسمع رجلاً طاعِنَاً في السِّنِ يعتذرُله عن سقوطِ (الراديو) منه عُنْوَةً ويتأسَّفُ له بشدةٍ عن احتمال إصابته بألمٍ من جراء (الراديو) الساقط من يديه المرتعشة. راح «مروان « يجوب بعينيه هذا الشريطَ

الطويلَ على الحافة من تلك الألوان فارتعشتْ خلاياه فَرِحَةً ، بينما العجوزُ يقطفُ باقةً من (الجارونيا) مجتمعةً حَوْلَ ساقٍ واحدةٍ وقد أزال منها أوراقَها الناتِئَةَ وتركَ السَّاقَ عاريةً ثم أنزلها عَبْرَحبلٍ طويلٍ ينتهي بوعاءٍ صغيرٍوأوماً لمروان ضاحكاً ومشجّعَاً : ضَع ال (راديو) هنا وخذ الورودَ . انتشى مروانُ منبهراً من شكل الوردِ ذاتِ الأوراق المتدثرةِ والنائمةِ على بعضها لتصنعَ دوائرَ بجانبِ بعضِها . في المدرسةِ حكى مروانُ لمدرسته القصةَ وعندما عاد حكى بالتفصيل لأمّه وهى تقومُ بكيّ ملابسِهِ ، وظلَّ منتظراً حتَّى عادَ أبوهُ فأعادَ ترديدَ حكايتِهِ وكانت مكافأتُهُ قبلاتٍ كثيرةٍ بعثروها على خدَّيْهِ وجبينِهِ وكلماتِ إطراءٍ وثناءٍ عليه وهم يعيدون عليه النصيحةَ بمساعدةِ من يحتاج مساعدةً وخاصَّةً إذا كان عجوزاً طاعناً في السِّنِ كجارِهِ . أصبحتْ عادةُ مروان اليوميةَ المرورَ قُرْبَ النافذةِ ووجهُهُ يرنُو إلى الأعلى يسمعُ الهسهسةَ فينتفضُ بخوفٍ مُبْهَمٍ ، ويرى الورودَ تُغريهِ فيتقافزُ لأعلى فَرِحَاً وعند قُربِ النافذةِ يُبْطِئُ الخطوَ فيروحُ العجوزُ يقذفُ لَهُ بالورودِ مبتسماً فيأخذُهَا فَرِحَاً مغتبطاً حتى كان يوماً أبطأَ الخطوَ ووقفَ تحتَ النافذةِ حتَّى ظهرَ له العجوزُ معاتِبَاً وحزيناً ثم أخبره أنَّ المياهَ قد انقطعتْ منذ ثلاثةِ أيام وأنه يحتاجُ إلى بعض الماءِ ليسقيَ الورودَ قبل أن تموتَ وأنزل إليه إناءً صغيراً وأمرهُ أن يملأَهُ بالماءِ من هذا الإناء الكبيرِ الذي وضعه خصّيصَاً تحت الشرفةِ منذ ليلةِ البارحةِ ملأ مروان الإناءَ بالماء على قدْرِ استطاعتِه فأمره بلهجةٍ حازمةٍ لا تَحْتَمِلُ تردُّدَاً أنْ يصعدَ بِهِ فصعدَ . دخلَ ممسكاً الإناء ومسرعَاً صَوْبَ الورودِ لنجدَتِهَا من العطشِ ، لكنَّ العجوزَ كانتْ قبضتُهُ مفاجئةً جِدّاً ومُحْكَمَةً للغايةِ وفي لحظةٍ حمراءَ كبرقٍ أخذَهُ إلى الفراشِ خالعا ملابسَهُ وملابسَ الطِّفْلِ مواجهاً ارتباكَ العينينِ وهلعَهُمَا بانتصابِ أسودَ ومراوِغَاً الرَّعَشَاتِ والدموعَ بلحظةٍ قاسيةٍ صُلْبَةٍ ليس منها رجوعٌ . راح الطفلُ يقاوم اهتزازاتٍ وزئيرٍ لا يفهمْ معنَاهُ ، ولا كيفَ ينفلِتُ منه.. ؟؟ ولمْ يكنْ معه سلاحٌ أمامَ جحافلِ الأسلحةِ العاتيةِ، واليدَيْنِ الَّتي تجوسُ معربدةً والأعضاءُ التي ليس بينها تكافؤٌ تحاولُ الامتزاجَ بعنفٍ وتصرُّعلى التماهي ببعضِها فراحَ «مروانُ» يصرخُ ينزلقُ من تحتِهِ ويصرخُ ، يتألَّم ويصرخُ ، تتمزق غلالَتُهُ التي تلفُّهُ ويصرخُ ،كان العجوزُ قد بلغ حدَّاً ليس منه رجوعٌ فضغطَ بالوسادةِ على فمِهِ ليوقفَ صرخاتِهِ بينما راح يكمل ما بدأه بشراسةٍ ودَوِيٍّ وانتقامٍ جاءتْ جميعاً من أوديةٍ سحيقةٍ وبعيدةٍ . وصَمَتَ مروانُ ، خَفَتَ صراخُهُ تماماً قبل أنْ يَهْمَدَ هو، وحين أفاق وقد اكتملت شهوتُهُ وهدأ اجتياحُهُ وتناثرَتْ دفقاتٌ سائلةٌ ملوّثَةً أماكنَ الجراحِ كان الطفلُ قد هَدَأَ -أزرقاً مَيْتَاً..!!

راح العجوزُ يلملمُ الأشياءَ «الشاهدةَ»ولفَّ الجثةَ جيَّداً وانتظرَ خفوتَ الخطوِ فألقى بالجثةِ في أحدِ صناديقِ القُمَامَةِ وعادَ مُسْرِعَاً يُسَمِّدُ الأصيصَ الجديدَ الذي اشتراهُ . كانتِ الأمُّ تضربُ صدرَهَا، تصرخُ كالمجنونةِ فقد مر نهارانِ وهجمَ الليلُ الثاني ومروانُ لم يزلْ غائباً عنها بينما الأبُ يروحُ ويجئُ في اتجاهاتٍ عدَّةٍ مرتعشِاً يهاتفُ الشرطةَ مرَّةً و يسأل الذاهبين والعائدين مراتٍ: هل رأيتم مروان..؟؟؟؟
بينما مروان يرقدُ في القاعِ منتفخاً و كلُّ واحدٍ يأتي يُلقي بالقُمَامَة فوقَه ويقفُ يسمعُ قصةَ الاختفاءِ فيضربُ كفَّاً بكفٍّ ويدعو لهما بأن يعيد اللهُ « وحيدَهما «إليهما سالماً لم يمسَسْهُ أحدٌ بِسُوءٍ..!! .